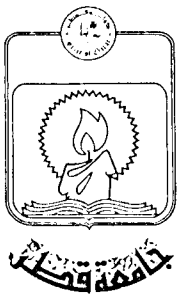

جامعة قطر
كلية الشريعة والدراسات

مجلة

مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الخامس

١٤١٠/١٤١١هـ - ١٩٩١م

سنة الرسول ﷺ

في استخدام العامل النفسي في الصراع مع الأعداء وآثارها الاستراتيجية

للواء الركن محمد جمال الدين محفوظ

جرت سنة رسول الله ﷺ - في أغلب معاركه مع أعدائه - على استخدام العامل النفسي لتجريدهم من إرادة القتال مما كان يؤدى إلى تحقيق النصر عليهم بغير قتال.

ويتفق ذلك مع جوهر الإسلام دين السلام الذى لا يقاتل إلا من يقاتله، وهو - في الوقت نفسه - تطبيق لاستراتيجية الردع الإسلامية التي تقوم على إعداد القوة المرابطة لإيقاع الرهبة في قلب الأعداء وإخافتهم من عاقبة عدوانهم.

وفي هذا البحث يتناول الكاتب الأساليب التي اتبعها الرسول ﷺ في هذا المجال وما حققته من آثار استراتيجية لصالح الدعوة حتى تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة العربية وتحولت اتجاهات من وقفوا ضد الدعوة إلى اعتناق الإسلام بل والجهاد في سبيل الله.

تمهيـــد

من الدروس التي تستخلص من سنة الرسـول القـائد ﷺ في مـواجهتـه لأعـدائه دفاعـاً عن الـدعـوة وإعـلاءً لكلمـة الله أن «استخـدم العـامل النفسي في الصراع مع الأعداء ضرورة حيويةلتحقيق الأهداف الاستراتيجية». فإرادة المقاومة وإرادة القتال هي أصلاً «حالة ذهنية» تنشأ في عقل المقاتل، فتولد لديه الدافع للصمود والاستبسال في القتال، وكل طرف من الأطراف المتصارعة يسعى بكل الوسائل نحو «تغيير» تلك الحالة الذهنية لدى خصمه لكي يدفعه التي التخلى عن صموده وعزمه، وبذلك تنهار إرادته القتالية، وينهزم. يقول روميل : «إن القـائد النـاجح هـو الـذى يسيطـر على عقول أعدائه قبل أبدانهم».

والمعروف في العلم العسكرى أن الاستراتيجية العسكرية «هى فن وعلم استخدام القوات المسلحة في تحقيق أهداف السيـاسـة القـوميـة عن طـريق استخـدام القـوة أو التهديد باستخدامها»، ومعنى ذلك أن هناك نوعين للاستراتيجية العسكرية :

(١) استراتيجية الحرب : وهى «استخدام القوة» بهدف إكـراه الخصم على اتخاذ قـرار بقبول الشروط التي نريد إملاءها عليه.

(٢) واستراتيجية الردع : وهى «التهديد باستخدام القوة» بهدف منع العدو من اتخاذ قرار بـاستخـدام القـوة، أو بمعنى آخـر : تتركـز استراتيجيـة الـردع في «عـدم استخدام السلاح» بفضل الاستخدام الحاذق «لوجود الأسلحة»[١].

---

(١) جنرال أندريه بوسر : الردع والاستراتيجية ص ٢١٩ ترجمة أكر ديرى - ط دار الطليعة - بيروت.

ومن ذلك يتضح أن استراتيجية الردع تعتمد على «العامل النفسي» وأن النتيجة التي يمكن الحصول عليها من تطبيقها «نتيجة نفسية» وهى تجريد الخصم من إرادة القتال بعد أن يقتنع بأنه سوف يكون هو الخاسر لو استخدم القوة، يقول ليدل هارت خبير الاستراتيجية : «إن النتيجة الحاسمة فى حوار الإرادات هى حَدَث نفسي نريد وقوعه عند العدو ليدفعه إلى الاقتناع بأن الاشتباك أو متابعة الصراع أمر غير مجد»(٢).

الردع جوهر الاستراتيجية الإسلامية :

والحق أن الردع الذى يعده خبراء الاستراتيجية أنه «مفتاح» الاستراتيجية العسكرية في القرن العشرين (٣)، هو جوهر الاستراتيجية العسكرية الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً حيث يقول الله تعالى : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ (٤) وقال الرسول ﷺ : «نُصرت بالرعب مسيرة شهر» (٥).

من ذلك نستخلص أن الإسلام يجعل الهدف من إعداد القوة والمرابطة إرهاب الأعداء - «ترهبون» - وإخافتهم من عاقبة عدوانهم، ويفهم أيضاً من الحديث «نُصرت بالرعب» أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم يحقق النصر عليهم ويؤدى إلى تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية أكثر من أية وسيلة أخرى.

المقاصد النبيلة لاستخدام العامل النفسي :

واستخدام العامل النفسي في إطار استراتيجية الردع الإسلامية يتميز بما يلى :

(١) فهو يتفق بداهة مع جوهر الإسلام الذى هو دين السلام الذى لا يقاتل إلا من يقاتله، ولا يقاتل للسيطرة أو الاعتداء أو الاغتصاب أو حمل الناس على اعتناقه، وإنما يقاتل للدفاع ورد العدوان (انظر الآيات من ٣٩ إلى ٤١ من سورة

---

(٢) ليدل هارت : الاستراتيجية، الاقتراب غير المباشر ص ١٣٤ - ط البحوث العسكرية - القاهرة.

(٣) محمد جمال الدين محفوظ : المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ط٢ ص١٠٣ - دار الاعتصام.

(٤) الآية الكريمة ٦٠ من سورة الأنفال.

(٥) من حديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي : نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلّت لي الغنائم ولم تحُلّ من قبلي، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت للناس كافة، وأُعطيت الشفاعة» (متفق عليه).

وقالت امرأة من عبد القيس تصف قومها :

أبوا أن يفرّوا والقنا في نحورهم ... لم يبتغوا من خشية الموت سلما

ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ... ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما

فما الذى حدث بعد الإسلام؟

لقد كان النبي ﷺ في قتاله دفاعاً عن الدين يحارب «عرباً بعرب»، يل «قرشيين بقرشيين»، فكان «المسلمون» ينتصرون على الرغم من تفوق «المشركين» في العدد والعدة.

وسر ذلك أن الإسلام وجه نزعات العرب في نفوسهم إلى غاية عظمى رفعت أقدارهم وهى إعلاء كلمة الله، وإعزاز راية دينه، وما يدخل في مفهوم كلمة سبيل الله من قيم فاضلة وقضايا عادلة وأهداف نبيلة، وكان الإسلام حريصاً على أن يزود المسلمين بتلك الدوافع التي تملأ نفوسهم حمية واستبسالاً، ولهذا كان حساب المقاتل المجاهد في الحرب مُقدّراً بما في قلبه من عقيدة وإيمان، وبما في نفسه من مبادىء يحارب عنها، وأسباب تدعوه إلى خوض هذه الحرب، وهذا ما نجده في قول الله تعالى : ﴿يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون﴾[٩] وذلك لأن الذين كفروا «قد خلت نفوسهم» من المبادىء الكريمة والدوافع الصادقة، ولهذا حُرموا الفقه الذى كان من شأنه أن يبصرهم بالمبارىء التي يقاتلون عليها، والمثل التي يدافعون عنها، ومن حُرم هذا الفقه في مجال الحرب، فقد تعرّى من كل سلاح يدافع به، وكانت عاقبته الهزيمة والبوار.

وقد أراد الله من هؤلاء المؤمنين أن يحققوا في أنفسهم مايجعلهم أهلاً لتلك الغلبة الفذة والانتصار الفريد، من التربية الخلقية والعسكرية، والإقدام على التضحية، وإتقان الجهاد، والثبات في مواطن البأس، والتمسك بمبادىء الفروسية الإسلامية التي لايذل صاحبها ولا يخزى، وهو في الوقت نفسه لا يضل ولا يطغى.

---

(٩) الآية الكريمة ١٦٥ من سورة الأنفال.

وتبلغ الحوافز المعنوية والدوافع النفسية كمالها في نفس المجاهد، بشعوره وثقته في معية الله لجنده الذين يقاتلون في سبيله، ويقومون على مبادئه، وثقته في وعده سبحانه لهم بالنصر :

- ﴿ . . . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ (١٠).
- ﴿ . . . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (١١).
- ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (١٢).
- ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . .﴾ (١٣).
- ﴿ . . . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ (١٤).

والمؤمنون الذين ضمن الله لهم النصر وأخبر أن لهم الغلبة ولا سلطان للكافرين عليهم، ذكرهم الله تعالى في أوائل سورة الأنفال، قال تعالى مبينا صفة المؤمنين المنصورين في الدنيا والآخرة : «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» (١٥).

شهادة التاريخ :

ولقد شهد التاريخ بثقل المسلمين في موازين القوى وبأثره النفسي في التغلب على الأعداء المتفوقين :

---

(١٠) الآية الكريمة ٤٠ من سورة الحج.
(١١) الآية الكريمة ٤٧ من سورة الروم.
(١٢) الآيات الكريمة ١٧١، ١٧٢، ١٧٣ من سورة الصافات.
(١٣) الآية الكريمة ٥٥ من سورة النور.
(١٤) الآية الكريمة ١٤١ من سورة النساء، وسبيلاً : أي سلطاناً.
(١٥) الآيات الكريمة ٢، ٣، ٤ من سورة الأنفال.

(١) فمن بين ثمانى وعشرين غـزوة - في عصر النبـوة - حققت تسع عشرة غـزوة أهدافها بلا قتال كما ذكرنا .

(٢) وبعد عصر النبوة خرج المسلمون من شبه الجزيرة العربية وواجهوا القوتين العظميين في ذلك العصر فارس والروم بكل ما وراءهما من تاريخ حربي طويل ووصلت فتوحاتهم في أقل من مائة عام من حدود الصين شرقاً إلى شاطىء الأطلسى غرباً، وقال المشير مونتجمري : «وقد وصلت الفتوحات الإسلامية مدى لم تصله في أي عهد سابق، وليس ذلك لأنهم كانوا أكثر عدداً بل لأنهم كانوا يُستقبلون في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة، فزاد إيمان الشعوب بهم، علاوة على تميزهم في الوقت نفسه بالصلابة والشجاعة في القتال، وقد أدى كل ذلك إلى اعتناق معظم الشعوب التي انتصروا عليها الدين الإسلامى»[١٦].

(٣) وفى أثناء فتح المسلمين لمصر سأل المقوقس رجاله عن جند المسلمين فقالوا : «رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولانهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأميرهم كأنه واحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم»، فأرهب هذا الوصف المقوقس حتى قال : «والذى يحُلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد» ودعا قومه إلى الصلح مع المسلمين[١٧].

---

(١٦) فيكونت مونتجمري : الحرب عبر التاريخ جـ٢ ص ١٨٦-١٨٩ تعريب فتحى عبد الله النمر - ط الأنجلو ١٩٧١.

(١٧) رفيق العظم : أشهر مشاهير الإسلام ص٥٦٠ - ط دار الفكر العربي ١٩٧٢.

ثانياً : التأثير النفسي للمفاجأة والخداع :

المفاجأة، هى إحداث موقف لايكون العدو مستعداً له، وتقع آثارها أول ماتقع في المحيط النفسي، فتشتت تفكير من يتعرض لها وتوقعه في الحيرة والارتباك وتفقده المبادأة[١٨]، وتحصر سلوكه في نطاق «رد الفعل» وهو أمر له تأثيره الشديد على إرادته القتالية، وكذلك الأمر بالنسبة للخداع.

واستراتيجية الردع الإسلامية تعتمد على الاستغلال الأمثل لهذين العنصرين للإفادة من آثارهما في الإخلال بالتوازن النفسي للعدو، وقد عبرّ القرآن الكريم عن ذلك كما يلى :

(١) بذكر رباط الخيل في قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) فإن «الخيل» تعبير يشير إلى سرعة الحركة والمفاجأة.

(٢) وبذكر كل ما يَعْدو ويُغير ويثير الغبار ويرسل الشرر من أدوات الهجوم (ومنها الخيل وما يقوم مقامها حديثا مثل الدبابات والمدرعات) وهو ما يفهم من قوله تعالى : ﴿والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا. فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعا. فوسطن به جمعاً﴾[١٩] ففي هذه الآيات يُقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التي يسمع لأنفاسها صوت هو الضبح من شدة الجري، ويتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قرحها للأرض الحجرية والتي يهجم بها فرسانها على العدو في وقت الصباح ليأخذوه على غرة، والتي يكون من شدة جريها أنها تثير غبار الطرق في وقت الصباح، فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته[٢٠].

وقد جرت سنة الرسول القائد ﷺ على استخدام المفاجأة والخداع ضد أعدائه وقد قال عليه الصلاة والسلام : «الحرب خدعة»[٢١]ونذكر فيما يلى بعض الأمثلة :

---

(١٨) المبادأة أو المبادرة معناها «حرية العمل»، والذى يملك المبادأة يحرم خصمه من حرية العمل ويحصر أعماله في نطاق رد الفعل، وإحراز المبادأة من أهم عوامل النجاح والنصر في السياسة والحرب على حد سواء.

(١٩) الآيات الكريمة من ١ إلى ٥ من سورة العاديات.

(٢٠) الشيخ عبد الجليل عيسى : تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم ص٨١٨ - ط القاهرة.

(٢١) الحديث رواه الخمسة عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(١) استخدام أسلوب جديد في القتال لم يعهده الأعداء من قبل مثل حفر الخندق حول المدينة في غزوة الخندق، وقد كان ذلك مفاجأة للمشركين عبروا عنها بقولهم : «والله إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها»[٢٢].

(٢) استخدام سلاح جديد في القتال، ومن ذلك استخدام المنجنيق والدبابات في حصار الطائف[٢٣].

(٣) إجراء تحركات الجيش ليلاً كما حدث فى غزوة خيبر حيث وصل جيش المسلمين موضع خيبر ليلاً وأكمل تطويقها في نفس الليلة فكان ذلك مفاجأة تامة لليهود حين خرجوا من بيوتهم في الصباح لأعمالهم فقال قائلهم : محمد والخميس (الجيش) معه»[٢٤].

(٤) خداع العدو بإخفاء اتجاه الهجوم والمقصودين به، ثم تغيير الاتجاه بالحركة السريعة نحو الهدف المقصود لأخذ العدو على غرة، وهو ما عبرّ عنه كعب بن مالك رضى الله عنه بقوله : «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها»[٢٥] ومن ذلك أن الرسول ﷺ أجرى - قبل غزوة الفتح - عملية لخداع قريش بأن بعث سرية أبى قتادة إلى بطن إضم، قال محمد بن عمر : لما أراد رسول الله ﷺ التوجه إلى مكة بعث أبا قتادة الحارث بن ربْعيّ رضى الله عنه في ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلَى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار»[٢٦].

(٥) وقد كان الرسول ﷺ حريصاً على اتخاذ كل تدابير السرية والأمن لكي يحقق المفاجأة في الفتح حتى لقد تعذر على قريش معرفة «هوية» الجيش الكبير الذى

---

(٢٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص٢٢٤ - ط الحلبي ١٣٧٥ هـ القاهرة.

(٢٣) ابن هشام : المرجع السابق ص ٤٨٣.

(٢٤) نفسه : ص ٣٢٩.

(٢٥) الحديث رواه البخاري.

(٢٦) محمد بن يوسف الصالحي الشامي : سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد جـ٦ ص٢٩٤ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٠٢هـ وبطن إضم تبعد عن المدينة حوالى ستين كيلومترا.

عسكر على أربعة فراسخ[٢٧] من مكة، فقد أوقد عشرة آلاف مسلم نيرانهم، ورأت قريش تلك النيران تملأ الأفق البعيد، فأسرع أبو سفيان بن حرب، وبديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام بالخروج باتجاه النيران حتى يعرفوا مصدرها وأهداف أصحابها ونواياهم، فلما اقتربوا من موضع عسكر المسلمين قال أبو سفيان لبديل : «ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكراً فرد عليه بديل : «هذه والله خزاعة (القبيلة التي اعتدت عليها بنو بكر حلفاء قريش) حمشتها الحرب»، لكن أبا سفيان لم يقتنع بهذا الجواب فقال : «خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها»[٢٨].

ثالثاً : التأثير النفسي لإظهار القوة :

يفهم من حديث الرسول ﷺ : «نُصرت بالرعب مسيرة شهر» أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم يحقق النصر عليهم، ويفهم أيضاً أن الأعداء كانوا يرهبونه ويخافونه «مع بعدهم عنه» بحيث لو أراد حربهم لقطع المسافة التي هى بينه وبينهم في شهر بسير الإبل[٢٩]، وقد استخدم الرسول ﷺ التأثير النفسي لإظهار القوة في عدة عمليات نذكر منها :

(أ) عمليات إحباط تدابير العدوان :

كان من النتائج الاستراتيجية لغزوة بدر الكبرى في رمضان عام ٢هـ أن طريق تجارة قريش إلى الشام أصبح محفوفاً بالمخاطر وخاصة بعد أن عقدت أكثر القبائل

---

(٢٧) الفرسخ ثلاثة أميال والميل العربي يساوى ١٨٤٨ مترا (انظر أحمد عادل كمال : الطريق إلى المدائن ص ١٤٣-١٤٥ ففيه بيانات عن مقاييس المسافات والأطوال والمساحات والمكاييل والموازين وهى نافعة لدارس التاريخ الإسلامى).

(٢٨) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص٤٠٢.

(٢٩) تقطع الإبل حوالى ٨ فراسخ في اليوم الواحد وهو ما يُعرف بمسيرة يوم في الأحوال العادية، وتزيد عن ذلك في الحملات الحربية.

العربية التي على هذا الطريق معاهـدات مع المسلمين، فكـان لـذلك أثـره في مـوقف القبائل العربية القريبة من المدينة، فقد بدأت ترى ما يتهدد مصيرها، ذلك لأن طريق الساحل إلى الشام هى الطريق المعبدة المعروفة، وتجارة قريش في مرورها بها في مرحلة الصيف إلى الشام تفيد هذه القبائل فائدة اقتصادية لا يُستهان بها.

وقدرت هذه القبائل حجم الخطر الذى يهددها إذا اضطرت قريش إلى العدول عن طريق الساحل بسبب سيطرة المسلمين عليه إذ أن ذلك سوف يعرضهـا دون شك إلى ما لا طاقة لها به من شظف الحياة في هذه البقاع الشديدة الشظف بطبيعتها، أضف إلى ذلك أن انتصار المسلمين في بدر وإجلاءهم ليهود بنى قينقاع من المدينة في شوال عـام ٢هـ قد أدخل الرعب في قلوب هذه القبائل.

من أجل ذلك أخذت هـذه القبـائل تفكـر في التعـرض للمسلمين والإغـارة على المدينة ومحاربة المسلمين، وقـد بـدأت هـذه الأعمال قبل أن يمضى شهـر واحـد على إجلاء يهود بنى قينقاع على النحو التالى :

(١) غزوة بنى سُلَيم :

فى أواخر شوال عام ٢هـ بلغ الرسول ﷺ أن جمعـاً من سليم وغَطفـان تجمعـوا في مـوضع يُسمى قَرْقَرة الكُدْر (٣٠) على بُعـد ثمانيـة بُرُد (٣١) من المدينة لـلاعتـداء على المسلمين، فخرج عليه الصلاة والسلام في مائتي رجل إلى قَرْقَرة الكُدْر ليأخـذ عليهم الطريق، فلما وصل إلى ذلك المكان رأى آثار النَّعَم (الإبل) ولم يجد في المجال أحداً إذ فرت جموع بنى سليم وغطفان لما سمعوا بقدوم المسلمين تاركين أمـوالهم للمسلمين، وقد أقام المسلمون في منازل القوم ثلاثة أيام لإظهار القوة ثم عادوا إلى المدينة (٣٢).

---

(٣٠) القرقرة (بفتح القاف) : أرض ملساء، والكدر (بضم الكاف وسكون الدال : طير في ألوانها كُدرة أي قريب من السواد، وقد عُرف بها ذلك الموضع ليعنى أنها مستقر هذه الطيور.

(٣١) بُرُد : جمع بريد، وهى المسافة التي يقطعها البريد، وهو يساوى ٤ فراسخ أي حوالى ٢٢ كيلومترا.

(٣٢) سبل الهدي والرشاد : جـ٤ ص٢٥٥.

(٢) غزوة ذي أَمَرّ :

وفي المحرم عام ٣ هـ علم عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من بنى ثعلبة وبنى محارب قد تجمعوا بذى أمر، وهى موضع بنجد من ديار غطفان، يريدون أن يغيروا على أطراف المدينة، قد جمعهم رجل يقال له : دُعثور بن الحارث بن محارب، فخرج فى أربعمائة وخمسين من المسلمين، لكن القوم لما سمعوا بمسير الرسول ﷺ هربوا في رءوس الجبال، فعسكر عليه الصلاة والسلام بذى أمر في ديارهم شهراً كاملاً بدون قتال ثم عاد بالمسلمين إلى المدينة [٣٣].

(٣) غزوة بحران :

وفى ربيع الأول عام ٣هـ علم عليه الصلاة والسلام بأن جمعاً من بنى سليم قد تجمعوا ببحران [٣٤] لقتاله فخرج في ثلاثمائة رجل من أصحابه، ولم يظهر، وجهاً للسير حتى يباغت بنى سليم في ديارهم حتى إذا كان دون بحران بليلة لقي رجلاً منهم فعلم منه أن القوم افترقوا، فحبسه عليه الصلاة والسلام مع رجل وسار حتى ورد بحران فلم يجد بها أحداً، فأقام في ديار القوم حوالى شهرين [٣٥].

(٤) غزوة ذات الرّقاع [٣٦]:

قدم إلى المدينة قادم بجلب (ما يجلب للتجارة من متاع وخيل وإبل) في جمادى الأخرة عام ٤ هـ فاشتراه منه أهلها، وعلموا منه أن جماعة من غطفان بنجد (بنى ثعلبة وبنى محارب) قد تجمعوا للقيام بغزو المدينة، وبلغ ذلك الرسول ﷺ فخرج في أربعمائة رجل حتى أتى نخلاً وهى من منازل بنى ثعلبة بنجد على بُعد مرحلتين من المدينة (حوالى ٦٠ كيلومتراً)، لكن القوم - رغم ضخامة عددهم - فروا تاركين

---

(٣٣) نفسه ص٢٦١.

(٣٤) بحران : قرية بينها وبين المدينة ثمانية برد (حوالى ١٧٥ كيلومتراً) على طريق مكة.

(٣٥) سبل الهدي والرشاد : جـ٤ ص٢٦٤.

(٣٦) اختلف في تسميتها بذات الرقاع، فقيل : هى إسم شجرة سميت الغزوة بها، وقيل لأن أقدامهم نَقِبَت، فلفوا عليها الخِرَق كما في الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلَم في غزاة، ونحن ستّة نفر بيننا بعير نعتقبه(نتبادل ركوبه)، فنَقِبَت أقدامنا، ونقبت قدماي وسقطت أظافري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق. (محمد فؤاد عبد الباقى : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص٤٧٤).

وراءهم نساءهم وأموالهم للمسلمين [٣٧].

(٥) غزوة دُومة الجندل :

وفي ربيع الأول عام ٥ هـ بلغ الرسول صلى الله عيه وسلم أن جمعاً كثيراً من القبائل القاطنة في منطقة دومة الجندل على الحدود بين الحجاز والشام، قد تجمعوا يريدون مهاجمة المدينة، فخرج عليه الصلاة والسلام في ألف من أصحابه فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل حاذق سلك به طريقاً غير الطريق المعتاد حتى اقترب من مواضعهم فلم يجد أحداً إذ أنهم هربوا تاركين أموالهم للمسلمين [٣٨].

(٦) غزوة بني المصطلق :

وفى شعبان عام ٥هـ جمع الحارث بن أبى ضرار بن حبيب سيد بنى المصطلق جمع لحرب رسول الله ﷺ من قدر عليه من قومه ومن العرب، فتهيئوا للمسير إليه، وكانوا ينزلون ناحية الفُرْع وهى قرية بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة، فبلغ خبرهم رسول الله ﷺ فخرج في ألف من أصحابه حتى انتهى إلى المُرَيسيع على مسيرة يوم من الفُرع (حوالى ٤٠ كيلو مترا)، وقد بلغ القوم مسير رسول الله ﷺ فتفرق عن الحارث جمع كثير ممن كان معه، لكن الحارث تهيأ للحرب ودارت معركة قصيرة بين الطرفين، فما أفلت من المشركين إنسان، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم وبلغت الغنائم ألفى بعير وخمسة آلاف شاة [٣٩].

(٧) غزوة بني لحيان :

وفى جمادى الأولى عام ٦هـ أراد الرسول ﷺ إنزال العقاب ببنى لحيان الذين غدورا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع قبل عامين خلَوَا، فأظهر أنه يريد الشام. ليصيب من القوم غرة، وسار مسرعاً حتى نزل بأصحابه بطن غُرَان على خمسة أميال من عُسْفَان، لكن بنى لحيان سمعت به فهربوا في رءوس الجبال [٤٠].

---

(٣٧) سبل الهدي والرشاد جـ٥ ص٢٦٨ والمرحلة تساوى من خمسة إلى ستة فراسخ (أي ٥ر٣٠ كيلومترا في الوسط).

(٣٨) سبل الهدي والرشاد : جـ٥ ص٤٨٤.

(٣٩) سبل الهدي والرشاد : جـ٤ ص٤٨٦-٤٨٨.

(٤٠) نفسه : جـ٥ ص٥٠.

ويكشف التحليل العام لهذه الغزوات عن التأثير النفسي لإظهار القوة :

(أ) فقد كان الأعداء يفرون عند علمهم باقتراب المسلمين من مواقعهم تاركين أموالهم وديارهم .

(ب) وكان المسلمون لايعودون إلى المدينة مباشرة بل كانوا يبقون في ديار أعدائهم الهاربين مدداً تراوحت بين بضعة أيام إلى شهرين تأكيداً للردع وإظهار القوة حيث لم يجرؤ الهاربون على القيام بمحاولة الهجوم على المسلمين لاسترداد أموالهم .

(جـ) وكانت نتيجة هذه الغزوات «إحباط» تدابير الأعداء للعدوان على المدينة .

(ب) استعادة الهيبة والروح المعنوية :

انتهت معركة أُحد على موعد للقاء بين الطرفين مرة أخرى بعد عام، فقد نادى أبو سفيان : إن موعكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد .

لكن الرسول القائد ﷺ قرر الخروج في اليوم التالى مباشرة للمعركة لمطاردة قريش وإظهار قوة المسلمين وإيقاع الرهبة في قلوب أعدائه، قال ابن اسحاق : «فلما كان الغد من يوم أُحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، فأذّن مؤذّنه أن لايخرجن معنا أحد إلا أحدٌ حضر يومنا بالأمس . . وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذى أصابهم (أي في أُحد) لم يوهنهم عن عدوهم» (٤١) .

وخرج الرسول ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال، فلما علم أبو سفيان بخروجهم وقع في روعه أن أعداءه جاءوا بمدد جديد من المدينة، ولقيه معبد بن أبى معبد الخزاعي - وكان قد مرّ برسول الله ﷺ بحمراء الأسد - فقال له : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون (أي يلتهبون

---

(٤١) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص ٩٤، ١٠١ .

من الغيظ) عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق (شدة الغيظ) عليكم شيء لم أر مثله قط، ثم نصح أبا سفيان بالرحيل، فقال أبو سفيان : فوالله لقد أجمعنا الكَرّة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال : فإنى أنهاك عن ذلك . . كذلك قال صفوان بن أمية بن خلف لقريش يُثنيهم عن الرجوع إلى المدينة : لا تفعلوا، فإن القوم قد حَربوا (أي غضبوا)، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان، فارجعوا .

فخاف أبو سفيان لقاء المسلمين، لكنه فكر فيما يؤدى إليه فراره من آثار فلجأ إلى الحيلة وإلى أسلوب التخويف والضغط النفسي، فأرسل إلى المسلمين من يبلغهم أنه قد أجمع السير ليستأصل بقيتهم، لكن الرسول ﷺ لما بلغته رسالة أبى سفيان لم يتضعضع عزمه، وقال : «حسبنا الله ونعم الوكيل» ، وظل في مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ليدل قريشاً على أنه على عزمه، وأنه منتظر رجعتهم (٤٢) .

وأخيراً فترت همة أبى سفيان وقريش وعادوا أدراجهم إلى مكة، ورجع المسلمون إلى المدينة وقد استردوا هيبتهم ومعنوياتهم .

ولابد هنا أن ننوه بالحكمة البالغة التي انطوى عليها قرار الرسول ﷺ بأن لايخرج إلى حمراء الأسد إلا من حضر أُحداً بالأمس، فلقد أراد عليه الصلاة والسلام أن يُشعر المسلمين بأنهم مازالوا موضع ثقته، وأن ما حدث بالأمس لم يؤثر في تلك الثقة، ولا يقدح في كفاءتهم القتالية، وأنهم قادرون - وحدهم وبغير مدد من الرجال - على مطاردة العدو، ولو كان عليه الصلاة والسلام قد سمح بالخروج معه لمن لم يحضروا معركة أُحد، لما تحقق له ما أراد من أن يستعيد المسلمون ثقتهم في أنفسهم . . وقد أقبل المسلمون على الخروج بروح قوية وعزم صادق رغم أن فيهم من كانت به بضع وسبعون جراحة، قال تعالى : «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم» (٤٣) .

---

(٤٢) نفسه : ص١٠٢-١٠٤ .

(٤٣) الآية الكريمة ١٧٢ من سورة آل عمران .

(جـ) تجريد قائد العدو من إرادة القتال :

ومن التدابير التي اتخذها الرسول ﷺ في مجال إظهار القوة والإفادة من تأثيرها النفسي ما حدث في غزوة فتح مكة واستطاع به تجريد أبى سفيان زعيم قريش ذاته من إرادة القتال، فقد أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام عمه العباس حين جاء بأبي سفيان إلى معسكر المسلمين خارج مكة باحتجازه في مدخل الجبل إلى مكة حتى يمر به جيش المسلمين فيحدّث قومه عما رآه عن بينة ويقين، فيقضى على أي أمل لديهم للمقاومة والقتال، قال عليه الصلاة والسلام : «ياعباس، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل[٤٤] حتى تمر به جنود الله فيراها» قال العباس : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادى، حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة، قال : يا عباس «من هذه؟ فأقول : سُليم، فيقول : مالى ولسليم، ثم تمر القبيلة فيقول : ياعباس من هؤلاء؟ فأقول : مُزينة، فيقول : مالى ولمزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا يسألنى عنها، فإذا أخبرته بهم، قال : مالى ولبنى فلان، حتى مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء[٤٥] فيها المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم، لا يُرى منهم إلا الحدق (العيون) من الحديد، فقال : سبحان الله : يا عباس، من هؤلاء؟ قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال : ما لأحد بهؤلاء قبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً - قلت : يَا أبا سفيان، إنها النبوة، قال : فنعم إذن؟ قلت : النجاء (السرعة) إلى قومك»[٤٦].

ومما يدل على حرص النبي ﷺ على إيقاع أكبر قدر من الضغط النفسي على أبى سفيان اختياره لمضيق الوادى بالذات لوقوف أبى سفيان، ذلك لأن مرور الجيش في

---

(٤٤) خطم الجبل : أنفل الجبل، وهو شيء يخرج منه يضيق به الطريق، وفي رواية أخرى في البخاري عن بعض الرواة «حطم الجبل» (بالحاء المهملة) وهو موضع ضيق تتزاحم فيه الخيل حتى يحطم بعضها بعضا.

(٤٥) سميت بالخضراء لكثرة الحديد (الدروع) وظهوره فيها (ابن هشام ق٢ ص٤٠٤).

(٤٦) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص٤٠٤ + صحيح البخاري جـ٥ ص١٨٦.

مضيق يختلف كثيراً عن مروره فى الأرض المكشوفة، فالمضيق يجعل أبا سفيان يرى قوة الجيش بصورة مجسمة، أما الأرض المكشوفة فسوف ينتشر الجيش فيها ويتفرق فلايقع التأثير المطلوب، وقد أسرع أبو سفيان إلى قومه فقال : «يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به» وذلك أوضح دليل على تجريده من إرادة المقاومة على نحو لم ينحصر في ذاته بل امتد أثره إلى قومه جميعاً فدعاهم إلى الاستسلام.

رابعاً : التأثير النفسي للعنف في القتال :

يقول رجال الاستراتيجية : «إن الفن الأساسي في القتال يكمن في معرفة أساليب تقوية الرباط النفسي، والمحافظة عليه في قواتنا، مع محاولة تدميره وسط قوات العدو، والعامل النفسي عامل كبير الأهمية، فهو الذي قاد إلى ايجاد التركيبات المادية والمعنوية المختلفة التي تخلق ما أسماه نابليون بالحدث الذى يؤدى ظهوره إلى هبوط مفاجىء في معنويات العدو»(٤٧).

● وتوجيهات الإسلام في القتال توجه المجاهدين إلى استخدام العنف والشدة وهو ما يبدو واضحاً في قول الله تعالى :

﴿محمدٌ رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾(٤٨).

﴿يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾(٤٩).

﴿يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾(٥٠).

---

(٤٨) الآية الكريمة ٢٩ من سورة الفتح.
(٤٩) الآية الكريمة ١٢٣ من سورة التوبة.
(٥٠) الآية الكريمة ٧٣ من سورة التوبة.

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾ (٥١).

﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ (٥٢).

﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يَذّكرّون﴾ (٥٣).

﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم﴾ (٥٤).

● والواقع أن العنف في القتال وإن كان أمراً تقتضيه طبيعة الموقف إذ هو «صراع بين اثنين يريد كل منهما أن يقتل الآخر قبل أن يقتله» ، إلا أن له في توجيه الإسلام مقاصد عميقة بعيدة المدى أهمها «إيقاع الرهبة» في قلوب الأعداء الذين اجترأوا على المسلمين واعتدوا عليهم، وإيقاع الردع الحاسم بهم، ليمنعهم من العدوان مرة أخرى، وبذلك تقل فرصة اندلاع الحروب، ويكون التمهيد للسلام، وبذلك تتحقق فكرة إرهاب الأعداء التي أمر الله جل وعلا بالإعداد لها في قوله : ﴿وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾.

ويستبين ذلك من التحليل الآتى :

(١) إن القصد من إعداد القوة هو إرهاب العدو وتخويفه من محاولة العدوان.

(٢) فإذا قام العدو - رغم إظهار المسلمين لقوتهم - بالعدوان، يقاتله المسلمون مدفوعين إلى قتاله «بفكرة الإرهاب» أيضاً، والإرهاب لايقع في نفسه إلا إذا شعر بالقوة والغلظة التى توجه إليه، ومعنى هذا أن العدو يجب أن يشعر بشدة المسلمين وغلظتهم في القتال إلى الحد الذى يوقع في قلبه الرهبة والرعب فلا يفكر بعد ذلك في العدوان، وهذا أمر تمليه الحكمة كما قال الشاعر :

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً، وإن تلقه بالشر ينحسم

---

(٥١) الآية الكريمة ٤ من سورة محمد.

(٥٢) الآية الكريمة ٥ من سورة التوبة.

(٥٣) الآية الكريمة ٥٧ من سورة الأنفال.

(٥٤) الآيتان الكريمتان ١٤-١٥ من سورة التوبة.

ولعل هذا بعض ما يفسر به قول النبي ﷺ : «نُصرت بالرعب» ، وقول الله تعالى : ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (٥٥) فإن الرعب عامل قوي في إضعاف قوى العدو والتغلب عليه، والقضاء على ما تحدثه به نفسه من الأمل في تحقيق غرضه.

ثم إن هذه الآية الكريمة توجه المجاهدين إلى ضرب الأعداء في رءوسهم (فوق الأعناق) أي فى المقاتل، كذلك توجه إلى تعطيلهم إن لم يستطيعوا قتلهم (واضربوا منهم كل بنان) فالبنان أطراف الأصابع ومن قطعت أصابعه لايحمل سيفاً ولايستطيع أن يمسك به إذا حمله، وتكون النتيجة من ذلك كله «شل قيادة العدو وقدرته القتالية» وتلك غاية استراتيجية يتوق إلى تحقيقها كل قائد، يقول خبراء الاستراتيجية : «إن التغلب على المقاومة عن طريق شل قوة المقاومة، أمر أكثر اقتصاداً في القوة من التدمير الفعلي للمقاومة الذى هو عبارة عن عملية أطول في الزمن، وأفدح في الثمن للحصول على النصر» (٥٦)، وقد أوضح الخبراء أن أفضل الأساليب التي تؤدى إلى إحداث هذا الشلل في قوة العدو هى «شل أعضائه الحيوية» بدلاً من اللجوء إلى «الجسم» (أي قوة الجيش) ومحاولة تدميره بالقتال، وهذا ما يفسر ما نراه ونسمع عنه في الحرب الحديثة من الضربات التي يوجهها كل طرف نحو مراكز القيادة (وهى الرأس المفكرة) ومواقع الطيران والمدفعية وكلها وغيرها من الأعضاء الحيوية التي إذا تعرضت للشلل ضاع الأمل فى تحقيق النصر.

خامساً : الجهاد باللسان :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» (٥٧).

---

(٥٥) الآية الكريمة ١٢ من سورة الأنفال.

(٥٦) ليدل هارت : الاستراتيجية، الاقتراب غير المباشر.

(٥٧) الحديث رواه أحمد والنسائي وغيرهما.

يدل هذا الحديث الشريف على «وجوب» الجهاد باللسان بالإضافة إلى الجهاد بالأموال والأنفس، والجهاد باللسان يكون بإقامة الحجة على الأعداء، ودعائهم إلى الله تعالى، ورفع الأصوات عند اللقاء، وبزجرهم ترويعاً لهم، ونحو ذلك من كل مافيه نكاية للعدو. قال تعالى : ﴿ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ (٥٨).

ويقرر الرسول ﷺ أن الجهاد باللسان لايقل أهمية وأثراً عن الجهاد بالأموال والأنفس، بل إنه قد يكون «أشد أثراً» على الأعداء من القتال بالسلاح، فعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «اهجوا قريشاً فإنه (أي الهجاء) أشد عليها من رشق النبل» (٥٩).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعبد الله بن رواحة وقد رآه يلقى الشعر في المسجد : «بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول الشعر؟» فقال رسول الله ﷺ : «خل عنه ياعمر، فلهى -أي القصيدة - أسرع فيهم من نضح النبل» (٦٠). ونذكر فيما يلى بعض صور الجهاد باللسان :

١ - الشعـــر :

كان يقف إلى جوار الرسول ﷺ ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه هم : حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة وقد أثر عنه ﷺ أنه قال : «أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان فشفى واستشفى»، وكانت مهمة أولئك الشعراء الدعوة إلى الله، وهجاء الأعداء، والرد على ما يقوله شعراؤهم من أمثال أبىٰ سفيان بن الحارث، وعبد الله بن الزِّبَعْرىَ وضرار بن الخطاب وغيرهم. وكان الرسول ﷺ ينصب لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً. يفاخر عنه ﷺ، ورسول الله يقول : «إن الله يؤيد

---

(٥٨) الآية الكريمة ١٢٠ من سورة التوبة.

(٥٩) الحديث رواه مسلم.

(٦٠) كنز العمل : جـ٢ ص ١١٨.

حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله ﷺ»[٦١] ونذكر فيما يلى بعض الأمثلة :

(١) الشعر في الدعوة إلى الله :

بعد فتح مكة قدمت على رسول الله ﷺ وفود العرب وكان منها وفد بنى تميم فقالوا : يا محمد، جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فأذن لهما، فبدأ خطيبهم عطارد بن حاجب، فلما فرغ من خطبته ندب عليه الصلاة والسلام ثابت بن قيس بن الشماس فأجاب الرجل في خطبته، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

(دارم : من بنى تميم).

وأنا نذود المعلمين إذا انتخوا ... ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
وأن لنا المرباع في كل غارة ... نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

(المعلمون : الذين يُعَلّمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها، وانتخوا : من النخوة وهو التكبر والإعجاب، والأصيد المتفاقم : أي المتكبر المتعاظم، والمرباع : أخذ الربع من الغنيمة).

فأمر الرسول ﷺ حسان بن ثابت أن يرد عليه فقال :

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال الأعاظم
نَصرنا وآوينا النبي محمدا ... على أنف راض من مَعَدّ وراغم
نصرناه لما حل وسط ديارنا ... بأسيافنا من كلا باغ وظالم
جعلنا بَنينا دونه وبناتنا ... وطبنا له نفساً بفيء المغانم
ونحن وَلَدْنا من قريش عظيمها ... ولدنا نَبيّ الخير من آل هاشم
بني دارم لاتفخروا إن فخركم ... يعود وبالا عند ذكر المكارم

---

(٦١) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ٢ ص٥ ط دار الشعب، وقد سمى حسان بشاعر رسول الله ﷺ، وكان يكنى أبا الحسام لمناضلته عنه ﷺ.

هبلتـم علينـا تفخـرون وأنتـم لنـا خـول مـا بين ظـئر وخـادم

(هبلتم : فقدتم وثكلتم - والظئر : التي ترضع ولد غيرها)

فـإن كنتـم جئتـم لحقـن دمائكـم وأمـوالكم أن تُقسمـوا في المقـاسم

فـلا تجعلـوا لله نـدا وأسلمـوا ولا تلبسـوا زيّـا كـزي الأعـاجـم

قال ابن اسحاق :

فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قال الأقرع بن حابس (من أشراف بني تميم) وأبي، إن هذا الرجل لمؤتًى له (أي لموفق له)، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى (أو أعلى) من أصواتنا.. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم [٦٢].

(٢) الشعر في الفخر بالنصر :

ومما قال حسان بن ثابت بعد النصر في بدر :

ألا ليت شعرى هل أتى أهل مكة إبارتنا الكفارَ في ساعة العسر [٦٣]

قتلنـا سَـراة القـوم عنـد مجالنـاً فلم يرجعـوا إلا بقاصمـة الظهـر

فكم قـد قتلنـا من كـريم مُـرزأ لـه حسب في قومه نابه الذكر [٦٤]

(٣) تعيير المشركين بالجبن في المعركة :

في غزوة الخندق عبرت مفرزة من فرسان قريش الخندق في منطقة ضيقة فيه، وفيهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبى جهل، لكن المسلمين تصدوا لهم فنازل علي بن أبى طالب عمرو بن عبد ود فقتله، كما قتل المسلمون رجلين من المشركين، وعادت بقية الفرسنان هاربة إلى قواعدها، قال ابن اسحاق : وألقى عكرمة بن أبى جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو، فقال حسان بن ثابت في ذلك [٦٥]:

---

(٦٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص٥٦٧.

(٦٣) إبارتنا : أي إهلاكنا، تقول : أبرنا القوم : أي أهلكناهم.

(٦٤) ابن هشام : المرجع السابق ق٢ ص٢١.

(٦٥) نفسه : ص ٢٢٦.

فَـرّ وألـقى لنـا رمحـه لعلـك عكـرم لم تفعـل
ووليت تعدو كعدو الظليم مـا إن تجـور عن المعـدل
ولم تلـق ظهـرك مستأنساً كـأن قفـاك قفـا فُـرعُـل

(الظليم : ذكر النعام، والفرعل بضم الفاء والعين : صغير الضباع)

(٤) الرد على شعراء المشركين :

بعد ماكان في غزوة أُحد قال شاعر المشركين عبد الله بن الزبعرى :

أبلغـن حسـان عني آيـة فقريض الشعر يشفي ذا الغلل
كـم قتلنـا من كـريم سـيد ما جـد الجـدين مقـدام بطـل
فقتلنا الضِّعف من أشـرافهم وعـدلنا مَيْـل بـدر فاعتـدل
لا ألـوم النفـس إلا أننـا لـو كـررنا لفعلنـا المفتعـل
بسـيوف الهنـد تعلو هامهـم عَلَـلا تعلـوهم بعـد نهَـل

(عللا بعد نهل : بمعنى الضرب بعد الضرب).

فأجابه حسان قال :

ذهبت يابن الزبعرى وقعـة كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقـد نلتـم ونلنـا منكـم وكذلك الحـرب أحيانا دُوَل
نضع الأسياف في أكتافكم حيـث نهـوى عَلَـلا بعد نهل
وعلونـا يـوم بـدر بالتـقى طاعة الله وتصـديق الرسـل
وقتلنـا كـل رأس منهـم وقتلنـا كل جحجـاج رفَـل
وتركنـا في قـريش عـورة يـوم بـدر وأحاديـث المَثـل

(الجحجاح : السيد، والرفل بكسر الراء وفتح الفاء : الذى يجر يوبه خيلاء)[٦٦].

---

(٦٦) ابن هشام : ق٢ ص١٣٦-١٣٧ .

٢ - الشعارات والهتافات (صيحات القتال) :

وهى من صور الجهاد باللسان التي اتخذها المسلمون لتحقيق عدة أهداف كالتعارف.

فيما بينهم أثناء اللالتحام بالأعداء أو فى الظلام، ومنها إثارة انفعالات الشجاعة والحماسة في نفوسهم مع ترويع العدو وبث الرهبة والخوف في قلبه ومن أمثلة صيحات القتال التي استخدمها المسلمون (٦٧):

فى غزوة بدر : أحد أحد - وفى غزوة أُحد : أمتْ أمت - وفي غزوة الخندق وبنى قريظة : حم، لا ينصرون - وفي غزوة بنى المصطلَق : يا منصور أمت.

سادساً : الحرب النفسية المضادة :

حين أراد أبو سفيان بن حرب الانصراف - بعد انتهاء القتال يوم أُحد - أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال : «اعل هُبَل، وأظهر دينك، فقال الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب : قم ياعمر فأجبه، فقال : الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان : يومٌ بيوم بدر، ألا إن الأيام دُوَل، وإن الحرب سجال :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساءُ ويوم نُسرّ

وحنظلة بحنظلة، وفلان بفلان، فقال الرسول ﷺ لعمر : قل : لا سواء (أي لا نستوى)، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال أبو سفيان : إنكم لتقولون ذلك، لقد خبْنا إذن وخسرنا، لنا العُزّى ولا عزى لكم، فقال رسول الله لعمر : قل : الله مولانَا ولا مولى لكم (٦٨).

وروى محمد بن عمر عن أبى وَجْزَة الساعدى واسمه يزيد بن عبيد، قال: لما ملّت قريش المقام (في غزوة الخندق)، وأجدب الجناب، وضاقوا بالخندق، وكان أبو سفيان على طمع أن يغيروا على بَيْضة المدينة كتب كتابا إلى رسول الله ﷺ فيه :

---

(٦٧) ابن هشام : ق١ ص٦٣٤+ق٢ ص٦٨، ص٢٢٦، ٢٩٤ على الترتيب.

(٦٨) سبل الهدي والرشاد : جـ٤ ص٣٢٤ عن حديث ابن عباس عند الإمام أحمد والطبرانى والحاكم.

«باسمك اللهم، فإنى أحلف باللات والعُزّى : لقد سرتُ إليك في جمع، وأنا أريد ألا أعود إليك أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بالخندق (وعند الواقدى: وجعلت مضايق وخنادق فليت شعرى من علمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أُحد) ولك منى يوم كيوم أحد تُبْقَر فيه النساء» وبعث بالكتاب مع أبى أسامة الجُشميّ، فقرأه على النبي ﷺ أبي بن كعب، وكتب رسول الله ﷺ : «أما بعد، فقد أتانى كتَابك وقديما غرّك بالله الغَرور، وأما ما ذكرت من أنك سرت إلينا (في جمعكم) وأنك لاتريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر يحول الله تعالى بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكْسرُ فيه اللات والعزى وإسافَ ونائلةَ وهُبَلَ حتى أُذَكّرَك، يا سفيه بنى غالب»(٦٩).

وقد استخدم الشعر أيضا في مجال الحرب النفسية المضادة كما ذكرنا للرد على شعراء المشركين.

سابعاً : الأثر النفسي للضغط الاقتصادي :

خلال العامين الأول والثانى للهجرة وقعت عدة عمليات استهدفت التعرض لقافلة قريش التجارية وهى : سرية حمزة في رمضان ١هـ - سرية عبيدة بن الحارث في شوال ١هـ - سرية سعد بن أبى وقاص في ذي القعدة ١ هـ - غزوة ودّان في صفر٢هـ - غزوة بواط في ربيع الأول ٢هـ - غزوة ذى العشيرة ٢هـ - غزوة بدر الأولى في جمادى الآخرة ٢هـ - سرية عبد الله بن جحس في رجب ٢هـ.

وقد شكلت هذه العمليات ضغطاً اقتصادياً على قريش التي أدركت خطورته على حياتها وخاصة بعد أن عقد الرسول ﷺ الاتفاقات مع القبائل العربية، وقد عبر عن ذلك قول صفوان بن أمية : «إن محمداً وأصحابه قد عَوّروا علينا متجرنا، فما ندرى كيف نصنع بأصاحبه وهم لايبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسلك؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا، فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة في الشتاء.

---

(٦٩) نفسه : ص ٥٥١-٥٥٢.

ثم زاد الضغط الاقتصادى حينما أرادت قريش أن تترك طريق الشام وتتحول إلى طريق العراق فتجهزت من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم، غير أن الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة في مائة راكب فاستولى على القافلة وهى في طريقها عند ماء يقال له (القَرَدَج) من مياه نجد (انظر الخريطة طريق ٦) فكانت ضربة اقتصادية لها أسوأ الأثر على حياة قريش إذ لم يعد أمامها إلا التجارة مع الحبشة، وهكذا أدى الضغط الاقتصادى وآثاره النفسية والمادية دوراً كبيراً في الصراع أدى بقريش إلى أن «تعيد النظر في موقفها ضد المسلمين»(٧٠).

ثامناً : تجريد العدو من الحلفاء والمناصرين :

ليس هناك أقسى على النفس من أن يجد المرء نفسه يصارع أعداءه وحده بلا حليف أو نصير، ومن أمثلة الأعمال التي قام بها الرسول ﷺ لتجريد قريش من الحلفاء والمناصرين ما يلي :

(١) العهود والمواثيق التي عقدها ﷺ بعد الهجرة مع مختلف القبائل :

مثل بنى ضمرة وبنى مدلج (٧١) وغيرهما من أهل الساحل لكفالة حرية الدعوة وحسن الجوار والمعاملة وكان من نتائجها حرمان قريش من تلك القوى التي كان يمكنها محالفتها أو مناصرتها أو على الأقل الاستعانة بها في حراسة وتأمين طريق تجارتها إلى الشام، يدل على ذلك ما قاله صفوان بن أمية - كما ذكرنا - : «إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لايبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه».

(٢) التخلص من اليهود :

بعد أن نقض اليهود عهدهم مع المسلمين وغدروا بهم تخلص الرسول ﷺ منهم جميعاً، وما أخَذَهم إلا بما قدمت أيديهم، فأجلى بنى قينقاع وبنى النضير، وقضى

---

(٧٠) ابن هشام : ق٢ ص٥٠.

(٧١) ابن هشام : القسم الأول ص٥٩١, ٥٩٩.

على بنى قريظة، وترك أهل خيبر بعد انتصاره عليهم زراعاً في أرضهم بعد أن أصبحوا بلا نصير من اليهود أو من الكفار.

وبذلك فقدت قريش حلفاءها الذين كانوا لاينفكون يحرضون القبائل على الرسول ﷺ.

(٣) تفريق صفوف الأعداء :

في غزوة الخندق تجمعت قوى قريش والقبائل الأخرى واليهود للقضاء على المسلمين، وحدث أن جاء نعيم بن مسعود الغطفاني (وكانت غطفان من القبائل التي انضمت إلى قريش) إلى رسول الله ﷺ وأخبره أنه أسلم ولايعلم قومه، وطلب منه أن يأمره بما يشاء، فقال الرسول : «إنما أنت رجل واحد، فخذّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة»، فقام نعيم بهذه المهمة بأسلوب بارع حاذق بحيث حققت مهمته هدفها في الوقيعة بين المتحالفين وفي إزالة الثقة فيما بينهم، وقصته مشهورة (٧٢)، وكان ذلك من بين العوامل التي دفعت قريشاً إلى الانسحاب فقد قال أبو سفين : «يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع (الخيل) والخف (يقصد الإبل) وأخْلفَتْنا بنو قريظة وبلغنا منهم ما نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل» (٧٣).

تاسعاً : إعطاء الأمان للعدو مقابل الاستسلام :

في غزوة فتح مكة لقي العباس عم النبي ﷺ أبا سفيان فأخبره بوصول جيش المسلمين، ونصحه بأن يلجأ إلى الرسول ﷺ حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل الجيش مكة صباح غد فيحيق به وبقومه العقاب، فقال العباس للرسول ﷺ : يارسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. . (وكان أبو سفيان قد أسلم ليحقن دمه عند لقائه بالرسول ﷺ) قال عليه الصلاة والسلام: «نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» (٧٤).

---

(٧٢) ابن هشام : القسم الثانى ص٢٢٩-٢٣٠.

(٧٣) نفسه : ص٢٣٢.

(٧٤) نفسه : ص٤٠٠ + ٤٠٠-٤٠٥.

وكان إعطاء الأمان لقريش على لسان زعيمها إن هى استسلمت بمثابة «الضربة النفسية القاضية» على إرادتها القتالية، فدخل المسلمون مكة بغير قتال يذكر.

عاشراً: لا ويل للمغلوب:

إذا كان من شأن المنتصر أن يستبد ويملى شروطه بدافع الغيظ والتشفى والانتقام والغرور بالقوة، فإن الرسول ﷺ - على الرغم مما فعلت قريش ضد الإسلام والمسلمين - لم يفعل شيئاً من ذلك، بل كان كل همّه أن «يؤلف قلوب المشركين»، ويجعلها تُقبل على الإسلام الذى هو دين السلام.

ولم يرفع الرسول القائد شعار «ويل للمغلوب» الذى رفعه الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٩، ففرضوا على ألمانيا المغلوبة عقوبات اقتصادية أثقلت كاهل اقتصادها، فكانت تلك المعاملة القاسية بالذات من أهم الأسباب التي دعت هتلر إلى العمل على استنهاض ألمانيا وبالتالى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية بعد عشرين عاماً فقط.

لقد وقف عليه الصلاة والسلام على باب الكعبة وقريش تنتظر ماذا يصنع، وقال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإنى أقول كما قال يوسف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا، فأنتم الطلقاء!

وقد كانت أعظم الآثار الاستراتيجية لتلك السماحة أن قريشاً لم تُقبل على الإسلام فحسب، بل تحولت وتحولت اتجاهاتها من أشد الناس عداوة للإسلام إلى أحرص الناس على رفع راية الجهاد في سبيله، وتلك صورة رفيعة «انفرد» بها الإسلام وليس في التاريخ ما يتسامى إليها.

ففي الشهر التالي لفتح مكة (أي في شوال عام ٨هـ) خرج الرسول ﷺ إلى هوازن في غزوة حنين ومعه «ألفان من أهل مكة»، قال ابن اسحاق: «ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصاحبه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً»(٧٥).

---

(٧٥) نفسه: ص٤٤٠.

وعند توزيع غنائم حنين والطائف أراد رسول الله ﷺ تأليف قلوب قريش والقبائل العربية فخصهم بالنصيب الأوفى فكان نصيب أبي سفيان بن حرب مائة بعير وأربعين أوقية من الفضة، وكان نصيب كل من ولديه معاوية ويزيد ونصيب غيرهما مثل ذلك، وهكذا بالنسبة لزعماء القبائل الأخرى فمنهم من أعطاه مائة بعير ومنهم من أعطاه خمسين (٧٦).

وكان الرسول ﷺ - وهو يتجهز لغزوة حنين - قد علم أن عند صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً، وكان مازال مشركاً (٧٧) وتحت إمرة الإسلام وكان الجيش في حاجة إليها، لكن الرسول صلى لله عليه وسلم لم يصادر أسلحة صفوان، وهو أقل ما كان يمكن أن يفعله أي قائد منتصر في مكانه، بل إنه دعاه وطلب منه أن «يعيره» سلاحه «وتعهد له» برده إليه!، فقد قال لصفوان: يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا، فقال صفوان: أغَصْباً يا محمد؟ قال: بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس» (٧٨).

ولم ينزع الرسول القائد ﷺ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة وابن عمه شيبة، بل قال لعثمان: «هاك مفتاحك ياعثمان، اليومُ يومُ برٍّ ووفاء» (٧٩).

هذه الصورة الفريدة من تحويل اتجاهات المغلوبين من العداء للإسلام إلى اعتناقه بل والجهاد في سبيله أثارت دهشة المشير مونتجمري وهو يسجل تاريخ الحروب فقال عن فتح المسلمين للأندلس: «من العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية في فتح أسبانيا ٧١٠-٧١٣م كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين!!» (٨٠).

---

(٧٦) نفسه: ص ٤٩٣.

(٧٧) كان صفوان قد طلب من الرسول بعد الفتح مهلة شهرين ليفكر فى أمر إسلامه فقال له الرسول: أنت بالخيار أربعة أشهر (ابن هشام: ق٢ص٤١٨)

(٧٨) ابن هشام: ق٢ ص٤٤٠.

(٧٩) نفسه: ص٤١٢.

(٨٠) فيكونت مونتجمري: الحرب عبر التاريخ جـ٢ ص١٨٨.

الطرق التجارية الرئيسية
في الجزيرة قبل الاسلام

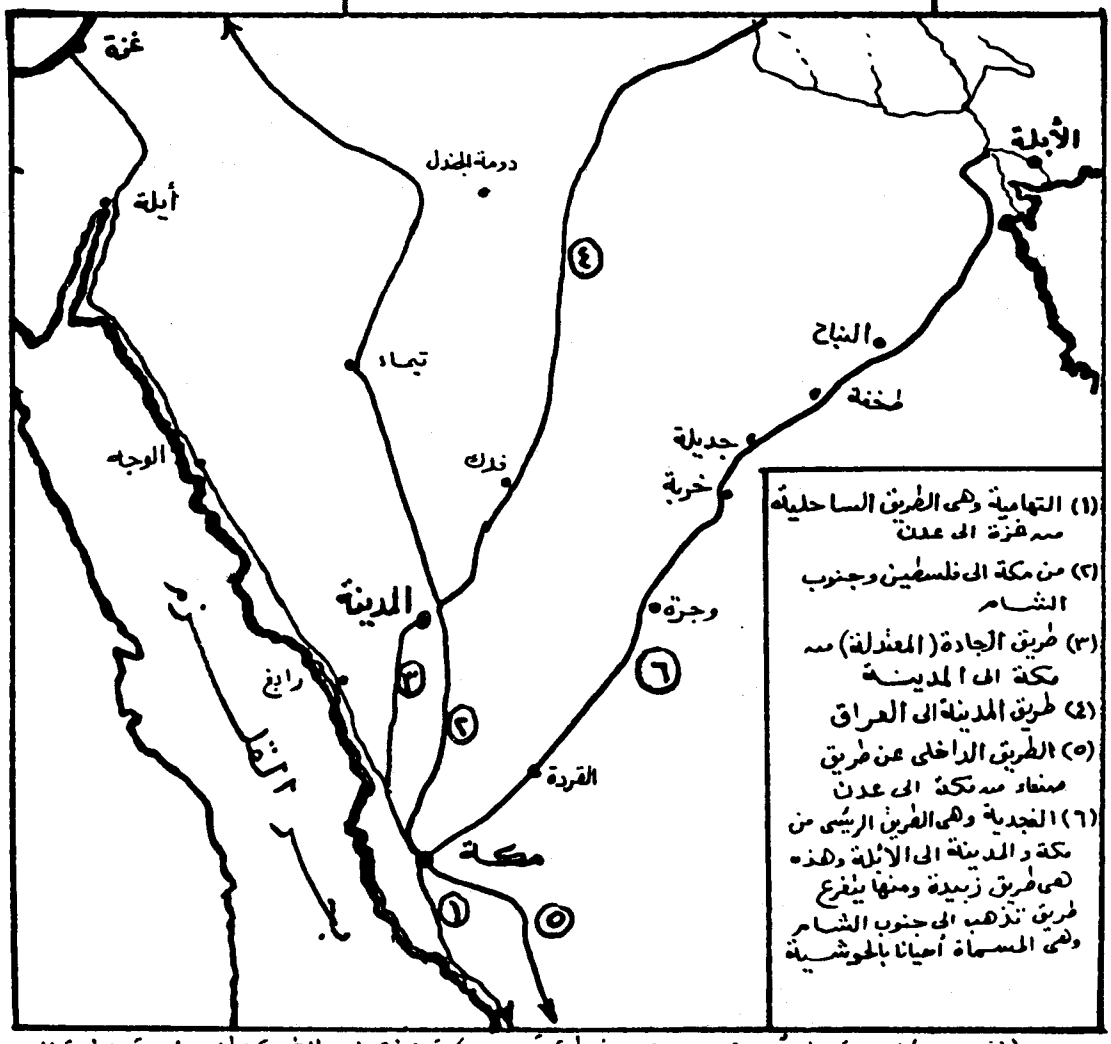

(نقلا عن "الفلس" تاريخ الأردن ص ٥٩ طريقة رقم ٣٥) وقد عرفت طريق الخبدية بطريق زبيدة نسبة الى زوجة الخليفة هارون الرشيد التي حفرت جبل وحفرت جفر الأبار وانشاء المحطات لراحة المارين

مواضع غـــزوات
إحـبـاط
تدابير العدوان
دومة الجندل
المدينة
قرقرة الكدر
ذو أمر
بحران
ذات الرقاع
بنو المصطلق
(الربيسيع)
غران
مكة
البحر الأحمر

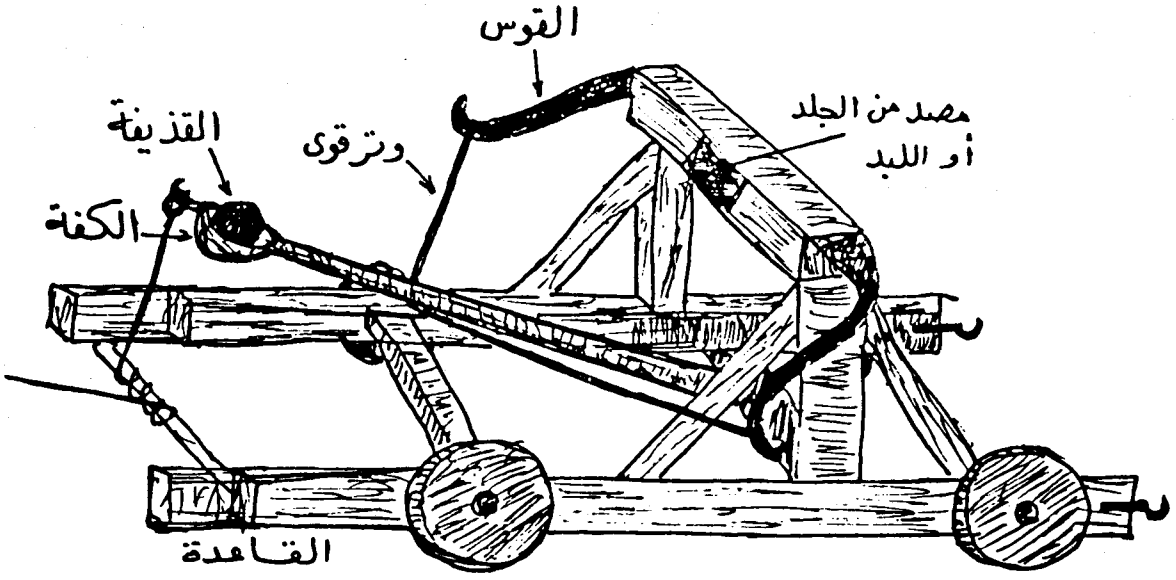

منجنيق لقذف الأثقال

سلاح جديد فاجأ به الرسول الأعداء